الشمال كما كتب الفينيقيون وكتب غيرهم كاليونان من الشمال الى اليمين وكلهم بدلوا شكل الحروف الا قليلاً . والخط الفينيقي على التحقيق اصل الابجديات كلها من يهودي وليسي ويوناني وايتاليكي وابتروسكي وايبيرسكي وربما كان الخط النروجي ايضاً فالفينيقيون هم الذين علموا العالم الكتابة (المقتبس)

مشاهير المتقدمين والمتاخرين

ترجمة جمال الدين الافغاني

الذي تنسب اليهِ يقظة مصر والشرق الادبية

بقلم تلميذه العلامة الشيخ محمد عبده

« يحملنا على ذكر شيء من سيرة هذا الرجل الفاضل ما رأيناه من تخالف الناس في امره وتباعد ما بينهم في معرفة حاله وتباين صوره في مخيلات اللاقفين لخبره حتى كانه حقيقة كلية تجلت في كل ذهن بما يلائمه او قوة روحية قامت لكل نظر بشكل يشاكله والرجل في صفاء جوهره وزكاء مخبره لم يصبه وهم الواهمين ولم يمسه حزر الخراصين وانا نذكر مجملاً من خبره نرويه عن كمال الخبرة وطول العشرة

هذا هو السيد محمد جمال الدين ابن السيد صفتر من بيت عظيم في بلاد الافغان ينمى نسبه الى السيد علي الترمذي المحدث المشهور ويرتقي الى سيدنا الحسين ابن علي ابن ابي طالب كرَّم الله وجهه . وآل هذا البيت عشيرة وافرة العدد تقيم في خطة ✻ كنر ✻ من اعمال كابل تبعد عنها مسيرة ثلاثة ايام ولهذه العشيرة منزلة علية في قلوب الافغانيين يجلونها رعاية لحرمة نسبها الشريف وكانت لها سيادة على جزء من الاراضي الافغانية تستقل بالحكم فيه وانما سلب الامارة من ايديها دوست محمد خان جد الامير الحالي وامر بنقل ابي السيد جمال الدين وبعض اعمامه الى مدينة كابل

« ولد السيد جمالَ الدين في قرية (اسعد آباد) من قرى كنر سنة ١٢٥٤ هجرية وانتقل بانتقال ابيه الى مدينة كابل وفي السنة الثامنة من عمره اجلس للتعلم وعني والده بتربيته فأيد العناية به قوة في فطرته واشراق في قريحته وذكاء في مدركته فأخذ من بدايات العلوم ولم يقف دون نهايتها . تلقى علوماً جمة برع في جميعها فمنها العلوم العربية من نحو وصرف ومعان وبيان وكتابة وتاريخ عام وخاص ومنها علوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه واصول فقه وكلام وتصوف ومنها علوم عقلية من منطق وحكمة عملية سياسية ومنزلية وتهذيبية وحكمة نظرية طبيعية والهية ومنها علوم رياضية من حساب وهندسة وجبر وهيئة افلاك ومنها نظريات الطب والتشريح . اخذ جميع تلك الفنون عن اساتذة ماهرين على الطريقة المعروفة في تلك البلاد وعلى ما في الكتب الاسلامية المشهورة واستكمل الغاية من دروسه في الثامنة عشرة من سنه ثم عرض له سفر الى البلاد الهندية فاقام بها سنة وبضعة اشهر ينظر في بعض العلوم الرياضية على الطريقة الاوربية الجديدة واتى بعد ذلك الى الاقطار الحجازية لاداء فريضة الحج وطالت مدة سفره اليها نحو سنة وهو يتنقل من بلد الى بلد ومن قطر الى قطر حتى وافى مكة المكرمة في سنة ١٢٧٣ فوقف على كثير من عادات الامم التي مرَّ بها في سياحته واكتنه اخلاقهم واصاب من ذلك فوائد غزيرة ثم رجع بعد اداء الفريضة الى بلاده ودخل في سلك رجال الحكومة على عهد الامير دوست محمد خان ولما زحف الامير الى هراة ليفتحها ويملكها على سلطان احمد شاه صهره وابن عمه سار السيد جمال الدين معه في جيشه ولازمه مدة الحصار الى ان توفي الامير وفتحت المدينة بعد معاناة الحصر زمناً طويلاً . وتقلد الامارة ولي عهدها شير علي خان سنة ١٢٨٠ واشار عليه وزيره محمد رفيق خان ان يقبض على اخوته خصوصاً من هو اكبر سناً منه ويعتقلهم فان لم يفعل سعوا بالناس الى الفتنة وألبوهم للفساد طلباً للاستبداد بالامارة . وكان في جيش هراة من اخوة الامير ثلاثة محمد اعظم ومحمد اسلم ومحمد امين . وهوى الشيخ جمال الدين كان مع محمد اعظم فلما احسوا بتدبير الامير ومشورة الوزير اسرعوا الى الفرار وتفرَّقوا الى الولايات كل منهم ذهب الى ولايته التي كان يليها من قبل ابيه ليعتصم بمنعته فيها وطاشت بهم الفتن واشتعلت نيران الحروب الداخلية . وبعد مجالدات عنيفة عظم امر محمد اعظم وابن اخيه عبد الرحمن (الامير السابق) وتغلبا على عاصمة المملكة وانقذا محمد افضل والد عبد الرحمن من سجن قزنة وسمياه اميراً على افغانستان ثم ادركه الموت بعد سنة وقام على الامارة بعده شقيقه محمد اعظم خان وارتفعت منزلة الشيخ

جمال الدين عنده فأحله محل الوزير الاول وعظمت ثقته به فكان يلجأ لرأيه في العظائم وما دونها (على خلاف ما تعوده امراء تلك البلاد من الاستبداد المطلق وعدم التعويل على رجال حكومتهم) وكادت تخلص حكومة الافغان لمحمد اعظم بتدبير السيد جمال الدين لولا سوء ظن الامير بالاغلب من ذوي قرابته حمله على تفويض مهمات من الاعمال الى ابنائه الاحداث وهم خلو من التجربة عراة من الحنكة فساق الطيش احدهم وكان حاكماً في قندهار على منازلة عمه شير علي في هرات ولم يكن له من الملك سواها وظن الفتى انه يظفر فينال عند ابيه حظوة فيرفعه على سائر اخوته فلما تلاقى مع جيش عمه دفعته الجرأة على الانفراد عن جيشه في مائتي جندي واخترق بها صفوف اعدائه فأوقع الرعب في قلوبهم وكادوا ينهزمون لولا ما التفت يعقوب خان قائد شير علي فوجد ذلك الغرّ المتهور منقطعاً عن جيشه فكرّ عليه واخذه اسيراً فتشتت جند قندهار وقوي الامل عند شير علي فحمل على قندهار واستولى عليها وعادت الحرب الى شبابها وعضد الانكليز شير علي وبذلوا له قناطير من الذهب ففرّقها في الرؤساء والعاملين لمحمد اعظم فبيعت امانات ونقضت عهود وجددت خيانات وبعد حروب هائلة تغلب شير علي وانهزم محمد اعظم وابن اخيه عبد الرحمن فذهب عبد الرحمن الى بخارى (وعاد الى بلاده رحمه الله) وذهب محمد اعظم الى بلاد ايران ومات بعد اشهر في مدينة نيسابور وبقي السيد جمال الدين في كابل لم يمسسه الامير بسوء احتراماً لعشيرته وخوف انتقاد العامة عليه حمية لآل البيت النبوي . الا انه لم ينصرف عن الاحتيال للغدر به والانتقام منه بوجه يلتبس على الناس حقه بباطله ولهذا راى السيد جمال الدين خيراً له ان يفارق بلاد الافغان فاستاذن للحج فاذن له على شرط ان لا يمر ببلاد ايران كيلا يلتقي فيها بمحمد اعظم وكان لم يمت فارتحل على طريق الهند سنة ١٢٨٥ بعد هزيمة محمد اعظم بثلاثة اشهر فلما وصل الى التخوم الهندية تلقته حكومة الهند بحفاوة في اجلال الا انها لم تسمح له بطول الاقامة في بلادها ولم تاذن للعلماء في الاجتماع عليه الا على عين من رجالها فلم يقم اكثر من شهر ثم سيرته من سواحل الهند في احد مراكبها على نفقتها الى السويس فجاء الى مصر واقام بها نحو اربعين يوماً تردد فيها على الجامع الازهر وخالطه كثير من طلبة العلم السوريين ومالوا اليه كل الميل وسالوه ان يقرأ لهم شرح الاظهار فقرأ لهم بعضاً منه في بيته ثم تحوّل عن الحجاز عزمه وتعجل بالسفر الى الاستانة

وصل الاستانة وبعد ايام من وصوله امكنته ملاقاة الصدر الاعظم علي باشا ونزل

منه منزلة الكرامة وعرف له الصدر فضله واقبل عليه بما لم يسبق لمثله وهو مع ذلك يزيه الافغاني قباء وكساء وعمامة عجراء وحومت عليه لفضله قلوب الامراء والوزراء وعلا ذكره بينهم وتناقلوا الثناء على علمه ودينه وادبه وهو غريب عن ازيائهم ولغتهم وعاداتهم وبعد ستة اشهر سمي عضواً في مجلس المعارف فادى حق الاستقامة في ارائه واشار الى طرق لتعميم المعارف لم يوافقه على الذهاب اليها رفقاؤه . ومن تلك الطرق ما احفظ عليه قلب شيخ الاسلام لتلك الاوقات حسن فهمي افندي لانها كانت تمس شيئاً من رزقه فارصد له العنت حتى كان رمضان سنة ١٢٨٧ فرغب اليه مدير دار الفنون تحسين افندي ان يلقي فيها خطاباً للحث على الصناعات فاعتذر اليه بضعفه في اللغة التركية فألح عليه تحسين افندي فانشأ خطاباً طويلاً كتبه قبل القائه وعرضه على وزير المعارف وكان صفوت باشا . وعلى شروانى زاده وكان مشير الضابطية وعلى دولتلو منيف باشا ناظر المعارف وكان عضواً في مجلس المعارف واستحسنه كل منهم واطنب في مدحه

فلما كان اليوم المعين لاستماع الخطاب تسارع الناس الى دار الفنون واحتفل له جم غفير من رجال الحكومة واعيان اهل العلم وارباب الجرائد وحضر في الجمع معظم الوزراء وصعد السيد جمال الدين على منبر الخطابة والقى ما كان اعده وارسل حسن فهمي افندي اشعة نظره في تضاعيف الكلام ليصيب منه حجة للتمثيل به وما كان يجدها لو طلب حقاً ولكن كان الخطاب في تشبيه المعيشة الانسانية ببدن حي وان كل صناعة بمنزلة عضو من ذلك البدن تؤدي من المنفعة في المعيشة ما يؤديه العضو في البدن فشبه الملك مثلاً بالمخ الذي هو مركز التدبير والارادة . والحدادة بالعضد والزراعة بالكبد والملاحة بالرجلين ومضى في سائر الصناعات والاعضاء حتى اتى على جميعها ببيان ضاف واف ثم قال هذا ما يتالف منه جسم السعادة الانسانية ولا حياة لجسم الا بروح وروح هذا الجسم اما النبوة وإما الحكمة ولكن يفرق بينهما بان النبوة منحة الهية لا تنالها يد الكاسب يخص الله بها من يشاء من عباده والله اعلم حيث يجعل رسالاته . اما الحكمة فما يكتسب بالفكر والنظر في المعلومات وبان النبي معصوم من الخطأ والحكيم يجوز عليه الخطأ بل يقع فيه . وان احكام النبوات آتية على ما في علم الله لا ياتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها فالاخذ بها من فروض الايمان اما اراء الحكماء فليس على الذمم فرض اتباعها الا من باب ما هو الاولى والافضل على شريطة ان لا تخالف الشرع الالهي . هذا ما ذكره متعلقاً بالنبوة وهو منطبق على ما اجمع عليه علماء الشريعة الاسلامية الا ان حسن فهمي

افندي اقام من الحق باطلاً ليصيب غرضه من الانتقام فاشاع ان الشيخ جمال الدين زعم ان النبوة صنعة واحتج لتثبيت الإشاعة بانه ذكر النبوة في خطاب يتعلق بالصناعة (وهكذا تكون حجج طلاب العنت) ثم اوعز الى الوعاظ في المساجد ان يذكروا ذلك محفوفاً بالتفنيد والتنديد فاهتم السيد جمال الدين للمدافعة عن نفسه واثبات براءته مما رمي به ورأى ان ذلك لا يكون الا بمحاكمة شيخ الاسلام (وكيف يكون ذلك) واشتد في طلب المحاكمة واخذت منه الحدة مبلغها واكثرت الجرائد من القول في المسالة فمنها نصراء للشيخ جمال الدين ومنها اعوان لشيخ الاسلام فاشار بعض اصحاب السيد عليه ان يلزم السكون ويغضي على الكريهة وطول الزمان يتكفل باضمحلال الاشاعات وضعف اثرها فلم يقبل ولج في طلب المخاصمة فعظم الامر وآل الى صدور امر الصدارة اليه بالجلاء عن الاستانة بضعة اشهر حتى تسكن الخواطر ويهدأ الاضطراب ثم يعود ان شاء. ففارق الاستانة مظلوماً في حقه مغلوباً لحدته وحمله بعض من كان معه على التحول الى مصر فجاء اليها في اول محرم سنة ١٢٨٨ هذا مجمل امره في الاستانة

مال السيد جمال الدين الى مصر على قصد التفرّج بما يراه من مناظرها ومظاهرها ولم تكن له عزيمة على الاقامة بها حتى لاقى صاحب الدولة رياض باشا فاستمالته مساعيه الى المقام واجرت عليه الحكومة وظيفة الف قرش مصري كل شهر نزلاً اكرمته به لا في مقابلة عمل واهتدى اليه كثير من طلبة العلم واستوروا زنده فاورى واستفاضوا بحره ففاض درًّا وحملوه على تدريس الكتب فقرأ من الكتب العالية في فنون الكلام الاعلى والحكمة النظرية طبيعية وعقلية وفي علم الهيئة الفلكية وعلم التصوف وعلم اصول الفقه الاسلامي وكانت مدرسته بيته من اول ما ابتدأ الى آخر ما اختتم ولم يذهب الى الازهر مدرّساً ولا يوماً واحداً. نعم كان يذهب اليه زائرًا واغلب ما كان يزوره يوم الجمعة. عظم امر الرجل في نفوس طلاب العلوم واستجزلوا فوائد الاخذ عنه واعجبوا بدينه وادبه وانطلقت الالسن بالثناء عليه وانتشر صيته في الديار المصرية ثم وجه عنايته لحل عقل الاوهام عن قوائم العقول فنشطت لذلك ألباب واستضاءت بصائر وحمل تلامذته على العمل في الكتابة وانشاء الفصول الادبية والحكمية والدينية فاشتغلوا على نظره وبرعوا وتقدم فن الكتابة في مصر بسعيه وكان ارباب القلم في الديار المصرية القادرون على الاجادة في المواضيع المختلفة منحصرين في عدد قليل وما كنا نعرف منهم الاّ عبد الله باشا فكري وخيري باشا ومحمد باشا سيد احمد على ضعف فيه ومصطفى باشا وهبي على اختصاص فيه ومن عدا هؤلاء فاما

ساجعون في المراسلات الخاصة واما مصنفون في بعض الفنون العربية او الفقهية وما شاكلها

ومن عشر سنوات ترى كتبة في القطر المصري لا يشق غبارهم ولا يوطأ مضمارهم واغلبهم احداث في السن شيوخ في الصناعة **وما منهم الا من اخذ عنه او عن احد تلامذته او قلد المتصلين به ومنكر ذلك مكابر وللحق مدابر** . هذا ما حسده عليه اقوام واتخذوا سبيلاً للطعن عليه من قراءته بعض الكتب الفلسفية اخذاً يقول جماعة من المتأخرين في تحريم النظر فيها على ان القائلين بهذا القول لم يطلقوه بل قيدوه بضعفاء العقول فصار النظر خشية على عقائدهم من الزيغ اما الثابتون في ايمانهم فلهم النظر في علوم الاولين والآخرين من موافقين لمذاهبهم او مخالفين فلا يزيدهم ذلك الا بصيرة في دينهم وقوة في يقينهم . ولنا في ائمة الملة الاسلامية الف حجة تقوم على ما نقول **ولكن تمكن الحاسدون من نسبة ما اودعته كتب الفلاسفة الى رأي هذا الرجل واذاعوا ذلك بين العامة** ثم ايدهم اخلاط من الناس من مذاهب مختلفة **كانوا يطرقون مجلسه فيسمعون ما لا يفهمون ثم يحرفون في النقل عنه ولا يشعرون** غير ان هذا كله لم يؤثر في مقام الرجل من نفوس العقلاء العارفين بحاله ولم يزل شانه في ارتفاع والقلوب عليه في اجتماع الى ان تولى خديوية مصر حضرة خديويها المغفور له توفيق باشا وكان السيد من المؤيدين لمقاصده الناشرين لمحامده الا ان بعض المفسدين ومنهم (مستر فيفيان) قنصل انكلترا الجنرال سعى فيه لدى الجناب الخديوي ونقل المفسد عنه ما الله يعلم انه بريء منه حتى غير قلب الخديوي عليه فاصدر امره باخراجه من القطر المصري هو وتابعه ابو تراب ففارق مصر الى البلاد الهندية سنة ١٢٩٦ واقام بحيدر آباد الدكن وفيها كتب هذه الرسالة في نفي مذهب الدهريين . ولما كانت الفتنة الاخيرة بمصر دُعي من حيدر آباد الى كلكته والزمته حكومة الهند بالاقامة فيها حتى انقضى امر مصر وفثأت الحرب الانكليزية ثم ابيح له الذهاب الى اي بلد فاختار الذهاب الى اوربا واول مدينة اصعد اليها مدينة لوندره اقام بها اياماً قلائل ثم انتقل عنها الى باريز واقام بها ما يزيد على ثلاث سنوات وافيناه في اثنائها . ولما كلفته جمعية العروة الوثقى ان ينشيء جريدة تدعو المسلمين الى الوحدة تحت لواء الخلافة الاسلامية ايدها الله سألني ان اقوم على تحريرها فاجبت ونشر من الجريدة ثمانية عشر عدداً وقد اخذت من قلوب الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً ما لم ياخذه قبلها وعظ واعظ ولا تنبيه منبه وذلك لخلوص النية في تحريرها وصحة المقصد في تحبيرها ثم قامت الموانع دون

الاستمرار في اصدارها حيث أُقفلت ابواب الهند عنها واشتدت الحكومة الانكليزية في اعنات من تصل اليهم فيه ثم بقي بعد ذلك مقيماً في اوربا اشهراً في باريز واخرى في لوندره الى اوائل شهر جمادى الاولى سنة ١٣٠٣ وفيه رجع الى البلاد الايرانية

اما مذهب الرجل فحنيفيٌّ حنفيٌّ وهو وان لم يكن في عقيدته مقلداً لكنه لم يفارق السنة الصحيحة مع ميل الى مذهب السادة الصوفية رضي الله عنهم وله مثابرة شديدة على اداء الفرائض في مذهبه وعرف بذلك بين معاشريه في مصر ايام اقامته بها ولا ياتي من الاعمال الا ما يحلُّ في مذهب امامه فهو اشد من رأيت في المحافظة على اصول مذهبه وفروعه اما حميته الدينية فهي مما لا يساويه فيها احد يكاد يلتهب غيرة على الدين واهله

اما مقصده السياسي الذي قد وجه اليه افكاره واخذ على نفسه السعي اليه مدة حياته وكل ما اصابه من البلاء اصابه في سبيله فهو انهاض دولة اسلامية من ضعفها وتنبيهها للقيام على شؤونها حتى تلحق الامة بالامم العزيزة والدولة بالدول القوية فيعود للاسلام شانه وللدين الحنفي مجده **ويدخل في هذا تنكيس دولة بريطانيا في الاقطار المشرقية** وتقليص ظلها عن رؤوس الطوائف الاسلامية وله في عداوة الانكليز شؤون يطول شرحها

اما منزلته من العلم وغزارة المعارف فليس يحدها قلمي الا بنوع من الاشارة اليها . لهذا الرجل سلطة على دقائق المعاني وتحديدها وابرازها في صورها اللائقة بها كأن كل معنى قد خلق له . وله قوة في حل ما يعضل منها كأنه سلطان شديد البطش فنظرة منه تفكك عقدها . كل موضوع يلقى اليه يدخل للبحث فيه كأنه صنع يديه فياتي على اطرافه ويحيط بجميع اكنافه ويكشف ستر الغموض عنه فيظهر المستور منه . واذ تكلم في الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها . ثم له في باب الشعريات قدرة على الاختراع كأن ذهنه عالم الصنع والابداع . وله لسن في الجدل وحذق في صناعة الحجة لا يلحقه فيها احد الا ان يكون في الناس من لانعرفه . وكفاك شاهداً على ذلك انه ما خاصم احداً الا خصمه ولا جدله وعالم الا الزمه . وقد اعترف له الاوربيون بذلك بعدما اقرَّ له الشرقيون . وبالجملة فاني لو قلت **ان ما اتاه الله من قوة الذهن وسعة العقل ونفوذ البصيرة هو اقصى ما قدّر لغير الانبياء لكنت غير مبالغ** . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

اما اخلاقه فسلامة القلب سائدة في صفاته وله حلم عظيم يسع ما شاء الله ان يسع الى ان يدنو منه احد ليمسّ شرفه او دينه فينقلب الحلم الى غضب تنقض منه الشهب . **فبينما هو حليم اوّاب اذا هو اسد وثاب** . وهو كريم يبذل ما بيده قوي الاعتماد على الله لا يبالي

ما تأتي به صروف الدهر عظيم الامانة سهل لمن لاينه صعب على من خاشنه طموح الى مقصده السياسي الذي قدمناه اذا لاحت له بارقة منه تعجل السير للوصول اليه وكثيرًا ما كان التعجل علة الحرمان وهو قليل الحرص على الدنيا بعيد من الغرور بزخارفها ولوع بعظائم الامور عروف عن صغارها شجاع مقدام لا يهاب الموت كأنه لا يعرفه الا انه حديد المزاج وكثيرًا ما هدمت الحدة ما رفعته الفطنة الا انه صار اليوم في رسو الاطوخاد وثبات الاقناد فخور بنسبه الى سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم لا يعد لنفسه مزية ارفع ولا عزًا امنع من كونه سلالة ذلك البيت الطاهر وبالجملة ففضله كعلمه والكمال لله وحده

اما خلقه فهو يمثل لناظره عربيًا محضًا من اهالي الحرمين فكأنما قد حفظت له صورة آبائه الاولين سكنة الحجاز حماه الله. ربعة في طوله وسط في بنيته قمحي في لونه عصبي دموي في مزاجه عظيم الراس في اعتدال عريض الجبهة في تناسب واسع العينين عظيم الاحداق ضخم الوجنات رحب الصدر جليل في النظر هش بش عند اللقاء قد وفاه الله من كمال خلقه ما ينطبق على كمال خلقه

بقي علينا ان نذكر له وصفًا لو سكتنا عنه سالنا عن اغفاله وهو انه كان في مصر يتوسع في اتيان بعض المباحات كالجلوس في المتنزهات العامة والاماكن المعدة لراحة المسافرين وتفرج المحزونين لكن مع غاية الحشمة وكمال الوقار وكان مجلسه في تلك المواضع لا يخلو من الفوائد العلمية فكان بعيدًا من اللغو منزهًا عن اللهو وكان يوافيه فيها كثير من الامراء وارباب المقامات العالية واهل العلم. وهذا الوصف ربما عدّه عليه بعض حاسديه لكن الله يحب ان تؤتى رخصه كما يحب ان تؤتى عزائمه واي غضاضة على المرء المؤمن في ان يفرج بعض همه بما اباح الله له